مجلة الآداب
الصفحات: 76 - 97
المجلد: 19، العـــدد: 01 ، ديسمبر 2019

النقد الموضوعاتي

Thematic criticism

د. منيرة شرقي

جامعة العربي التبسي، تبسة – الجزائر chergui.mounira@gmail.com

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم تصور عام عن "النقد الموضوعاتي"؛ من خلال تتبع هذا المصطلح، وتعدد مفاهيمه، وكذلك تسليط الضوء على لبنته الرئيسة المتمثلة في مفهوم "الموضوع".

يتتبع النقد الموضوعاتي "المدلولات" التي يحملها النص، على مستوى الكلمات والجمل، ولكنه ينشغل أكثر بالبحث عن "الموضوع المهيمن"، الذي يستحوذ على اهتمام الكاتب. للموضوع "مفردات" تشكل فيما بينها عائلة لغوية، وله "جذر" يرتبط بنفسية الأديب.

كلمات مفتاحية: النقد الموضوعاتي – الموضوع – الجذر

Abstract:

This study aims to present a general perception of "thematic criticism"; by tracing this term, and the multiplicity of its concepts, as well as highlighting its main field, which is "theme".

The thematic criticism traces the "meanings" that the text carries at the level of words and sentences, but it is more concerned with searching for the "dominant theme", which attracts the writer's attention. The topic has "vocabulary" that forms among them a linguistic family, and it has a "root" related to the psyche of the writer.

Keywords: thematic criticism - theme – root

المؤلف المراسل: د. منيرة شرقي

مقدمة:

اتسع ميدان "النقد الأدبي" ليشمل أنماطا متعددة من المقاربات؛ فمنها ما انشغل بالسياق الخارجي للنص؛ ومنها ما اشتغل بالنص في حد ذاته؛ ومنها ما جمع بين داخل النص وخارجه؛ مثل "النقد الموضوعاتي" الذي أعطى أولوية كبرى لدراسة الموضوع، وربط مدلولات النص بنفسية الكاتب؛ وهو ما يفتح بابا للتساؤل: ما النقد الموضوعاتي؟ ما مبادئه وأسسه؟ وما طبيعة الموضوع الذي يدرسه؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات، تقتضي الوقوف عند حيثيات هامة من ميدان "النقد الموضوعاتي"، المنبثق من ميدان النقد الأدبي العام؛ ومادام ميدانه قد استقر، فمن المفترض أنه يمتلك ما يميزه عن غيره. وفي هذا المقام من البحث، لن يكون هناك أجدى من "نقد النقد" بما له من آليات منهجية تمكّن الباحث من تقصي المتون النقدية، وكذلك تحقيق الغاية المنشودة؛ إذ تهدف الدراسة إلى تقديم تصور عام عن "النقد الموضوعاتي"، من حيث ملامحه، ومجال اهتمامه، وأبرز مبادئه.

أولا: النقد الموضوعاتي؛ المفهوم والمصطلح:

ظهر "النقد الموضوعاتي" (Critique Thématique) في فرنسا خلال الستينيات من القرن العشرين، بفعل مجهودات علمين بارزين من أعلامه هما: (جون بول ويبر) Jean-Paul Weber، و(جون بيار ريشار) Jean-Pierre Richard[1]. له أسس ومرتكزات أولها العناية بالموضوع ودراسته، وله كذلك وشائج مع مناهج نقدية الأخرى.

نشأ النقد الموضوعاتي في أحضان الفلسفة الظاهراتية، وتغذى على أفكار الفيلسوف الفرنسي (غاستون باشلار) Gaston Bachelard؛ ومن أشهر أقطابه أيضا خلافا لمن سبق ذكرهم: (جورج بولي) Georges Poulet، و(جون روسي) Jean Rousset، و(جيلبار دوران) Gilbert Durand، و(جون ستاروبنسكي) Jean Starobinski...[2]

ونظرا لجذوره الفلسفية المرتبطة بالظاهراتية؛ سمي النقد الموضوعاتي بـ"الظاهراتي" و"الفينومينولوجي" Critique phénoménologique في المؤلف الشهير "دليل الناقد الأدبي"[3]، والظاهراتية أو الظواهرية أو علم الظواهر تعني في فحواها أن: «معرفة العالم لا تتأتى بغير تحليل وعي الذات وهذا الوعي الذي يستبطن الأشياء كما هي بمعزل عن الذات شيء لا طائل منه»[4]، فلا وعي دون ذات، ولا موضوع في العالم دون ذات تعيه، وهنا تجسيد لقيمة وعي الذات في فهم العالم والحقائق الموجودة فيه. ومادامت معرف العالم لا تتأتى إلا بتحليل الوعي فـ«إن المنهج الفنومنولوجي هو منهج للرؤية الذهنية»[5]، و«إن المنهجية الفنومنولوجية هي مسيرة العقل إلى الأشياء ذاتها»[6]، ومن ذلك يتضح اتصال الموضوعاتية بالظاهراتية/ الفينومينولوجية جليا، إذ لا يكون الاعتناء بالمعنى –أكبر أهداف الموضوعاتية– إلا بالوعي، ورؤية الذهن لمختلف معارف العالم.

وللنقد الموضوعاتي بعض ملامح التفكير الرومانسي، إذ ذهب (دانييل برجيز) Daniel Bergez في مصب حديثه عن الوضع التاريخي إلى القول: «إن النقد الموضوعاتي هو أيديولوجيا ابن الرومنسية، ومع ذلك فإن مرجعية "الموضوعات" في الدراسات الأدبية تعود إلى فترة أبعد من ذلك بكثير. فالمصطلح موروث عن علم البلاغة القديم الذي يعطي أهمية كبيرة لـ "الموضعية topos"، وهي عنصر مدلولي élément de signification حاسم في أي نص. إلا أنه كان لا بد من انتظار تطورات العلوم المقارنة، في اللسانيات والأدب، في بداية القرن التاسع عشر كي يكتسب المفهوم

أهمية أكبر: فقد أمدنا مفهوم "الموضوع" بعنصر مشترك مدلولي أو إلهامي inspiration يسمح بمقارنة أعمال مؤلفين مختلفين انطلاقا من "فهرس index" واحد»[7]، فبين القول دور الموضوعاتية في الدراسات المقارنة، من حيث اشتراك الأعمال الأدبية في موضوع ما. واعتبار النقد الموضوعاتي وريث التيار الرومانسي الناشئ في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر؛ يرجع إلى أن المجالين (الموضوعاتية والرومانسية) يهتمان بالجانب المضموني، ورغم اعتناء الرومانسية بالخيال والعواطف والمشاعر، فإنها شاركت الموضوعاتية في مسألة وعي الذات، كما شاركتهما فيها الظاهراتية.

وأتت فكرة الموضوعاتية من حسن الاعتناء بالموضوعات الماثلة في الأعمال الأدبية، حيث دعا (دانييل برجيز) إلى قيمة التجربة في العمل الأدبي لأنه مرتبط بالروح، فيقصي بذلك النظرة العلمية للأدب التي تعلي من جانبه الشكلي: «ولا شك في أن النقد الموضوعاتي ينطلق من رفض أي تصور لعبي أو شكلاني للأدب، ورفض اعتبار النص الأدبي غرضا يمكن استنفاد معناه بالتقصي العلمي. وفكرته المركزية هي أن الأدب هو موضوع تجربة أكثر منه معرفة، وأن هذه التجربة ذات جوهر روحي»[8]، وإن كان النقد الموضوعاتي يعطي القيمة للعمل الأدبي من حيث تعبيره عن التجربة الإنسانية، فهذا لا يعني إمكانية تقصي معانيه تقصيا علميا.

درس (غاستون باشلار) الصورة الشعرية، وعرفها كما يلي: «هي بروز متوثب ومفاجئ على سطح النفس وللآن لم تدرس بشكل واف الأسباب النفسية الثانوية لهذا البروز المفاجئ»[9]، ومما يلاحظ هو اعتناؤه بالجانب النفسي في دراسته الظاهراتية، حيث ربط الصورة الشعرية بالروح أكثر من العقل؛ «فباشلار يؤكد على التمايز بين العقل والروح؛ فليس هناك تماثل في الهوية بينهما؛ طالما أن العقل هو الوجه الموضوعي للوعي، في حين أن الروح هي الوجه الذاتي له. والصورة الشعرية

بدورها ترتبط بهذا الوجه الذاتي، أي بالروح»[10]، وارتباطها بالروح حدث نتيجة لقاء تفاعلي بينها وبين الذات التي تعيها، فلا يكفي تصورها عقليا.

و«الصورة الشعرية عند باشلار ليست مجرد محاكاة للواقع، أو صورة باهتة من الموضوع الطبيعي؛ وإنما بالأحرى هي صورة جديدة تعيد تجديد وإبداع الموضوعات الطبيعية، وتكشف الروح الباطنية الكامنة بداخل تلك الموضوعات»[11]، وفي ذلك دلالة على أن الصورة الشعرية في القصائد ليست مجرد موضوعات باهتة، بل هي تحمل روحا؛ وبالتالي آثر (باشلار) استعمال مصطلح "الصورة الشعرية" على مصطلح "الموضوع" عند دراسته للشعر، بسبب احتواء الموضوع على روح.

ونظرا لكشف الصورة الشعرية عن روح الموضوع، رأى (باشلار) ضرورة التفاعل الذاتي معها: «عندما أتلقى صورة شعرية فإنني أعيش تفاعل ذاتيتها. وأنا أعلم أن علي أن أكرر الصورة حتى أتمكن من التعبير عن حماسي»[12]، والتفاعل الذاتي يخالف العقلاني أكيد، ويقصد به البروز المفاجئ الذي تحدث عنه في القول المأخوذ سابقا.

وبسبب التفاعل والحماس عند تلقي الصورة الشعرية، أضحت الظاهراتية مع (باشلار) تهتم بلحظة التلقي هذه، حيث «رأى أن وظيفة (الظاهراتية) ليست في وصف الأشياء كما هي في الطبيعة، فهذه مهمة عالم الطبيعة، وإنما وظيفتها في القدرة على استعادة الدهشة الساذجة حين رؤيتنا لأشياء الطبيعة»[13]، وهذه الدهشة شبهها بدهشة الطفل عند رؤية ما لم يره من قبل، مما يشير إلى ضرورة الاستغناء عن الأحكام المسبقة، واستقبال الموضوعات على أنها صور ذات روح تستوجب التفاعل معها.

وحين ترجم (غالب هلسا) كتاب (باشلار)، الموسوم بـ"جماليات المكان"، جعل له مقدمة من تأليفه يوضح فيها بعض الأمور، من بينها منهج المؤلف الظاهراتي: «المنهج الذي يصلح لدراسة موضوع الخيال»[14]، «ذلك أن نظرية باشلار ترتكز على نظرية الوعي؛ إذ أنه يهتم بوصف الصورة الشعرية من خلال فينومينولوجيا الخيال. وهذا يعني دراسة فينومينولوجيا الصورة الشعرية حين تنتقل إلى الوعي كنتاج مباشر للروح. ولكن، ليس على النحو الذي يتورط فيه في نزعة شكلانية»[15]. وبالتالي يتجاوز الوعي العقل، ليعتمد على الخيال في إدراك الصور الشعرية.

إن (باشلار) «لا يجعل الصورة الشعرية مجرد موضوع لنا ندرسه من خارجه؛ وإنما يهتم بوصف ماهية الصورة الشعرية كما تحدث في خبرتنا على نحو نتيح فيه لأنفسنا أن نشارك في عالم الصورة الشعرية وأن نخضع لها وننصت لما تقوله لنا، أو بتعبير باشلار، نهتم بها حينما تنتقل إلى الوعي كنتاج مباشر للروح»[16]، فأضحى الناقد مشاركا في عالم الصورة الشعرية.

وقد «اهتم باشلار بدراسة صور الطبيعة بوصفها صورا شعرية انطلاقا من اهتمامه بعلاقة الشعراء الحميمة بالطبيعة؛ إذ أننا لو تتبعنا آراء باشلار سنجد أنه قد اهتم بوصف ماهية تلك العلاقة من خلال فينومينولوجيا الخيال. فبالنسبة لباشلار، الشاعر –بل والفنان بوجه عام– لا يعبر عن الواقع على نحو ما يجده فحسب؛ وإنما يعيد إبداعه من جديد [...] ومن ثم، فليس هناك عند باشلار موضع للحديث عن نسخ الطبيعة؛ وإنما بالأحرى هناك تجديد وإبداع للطبيعة وعناصرها بوصفها عناصر الخبرة التخييلية، أو بالأحرى باعتبارها صورة متخيَّلة تكشف للمتلقي عن ماهيتها في الصورة الفنية»[17]. فعلاقة الشاعر بالطبيعة هي التي جعلت (باشلار) يدرس مواضيع طبيعية باعتبارها صورا شعرية أبدعها الشاعر من جديد معتمدا على الخيال.

ويعد (جون بيار ريشار) Jean-Pierre Richard خير ممثل للموضوعاتية حسب شهادات العديد من الدارسين العرب، من بينهم (عبد الكريم حسن) الذي ذكره في سياق حديثه عن الموضوعاتية، قائلا أنها: «إحدى المدارس النقدية المعاصرة في الغرب والتي يمثلها خير تمثيل الناقد الفرنسي المعروف "جان بيير ريشار" J.P.Richard»[18].

وقد تلقى النقاد العرب مجهودات (ريشار) باهتمام كبير، ومن بينهم (محمد عزام) الذي قدم دراسة موجزة عنها غير مستقلة عن مثيلاتها من مجهودات نقاد غربيين آخرين، ومن أبرز ما ذهب إليه قوله: «يتمثل (المنهج الموضوعاتي)، عند ريشار، في استنطاق مدلولات الصياغة اللفظية عبر ألفاظها وتراكيبها، وفق مبدأ التقدم والارتداد، وإضاءة المستوى اللغوي بالمستوى النفسي، وبالعكس. وأحيانا قد يخرج ريشار على هذه (الموضوعية) الصارمة، والمنهجية (الجذرية) ويعتمد الذائقة الشخصية، فيترك الكلمة لانطباعية حادة»[19]، فتبرز غاية الموضوعاتية من خلال تتبعها للمدلولات التي يحملها النص على مستوى الألفاظ أو التراكيب/ الجمل، وفق تحليل موضوعي أو انطباعي يتوصل به الناقد إلى المدلولات؛ وهو ما يؤدي إلى تعدد القراءات وانفتاح التأويلات.

كما شرح منهج (ريشار) الموضوعاتي باختصار، فذكر أنه حاول البحث عن الأفكار المتسلطة على الكاتب، وتحديد موضوع الكاتب الذي يستحوذ على كامل اهتمامه. فبدأ ريشار بإحصاء مفردات كل موضوع في العمل الأدبي، ثم جعل هذه المفردات حقولا، لأنها ستحتوي عناصر تتكرر بشكل ذي دلالة؛ وفي خطوة ثانية قام بتحليل مفردات كل حقل من حقول الموضوعات المستخرجة، ثم استخرج النتائج؛ وصولا إلى شبكة العلاقات الموضوعية المعبرة عن بنية الموضوعات، وهي أشبه بشجرة يمثل الموضوع الرئيس جذعها، وتمثل الموضوعات الفرعية غصونها[20]. ففي الخطوة الأولى تم الإحصاء والتصنيف، وفي الثانية حدث التحليل، وفي الثالثة الاستنتاج؛ وهنا يتجلى مبدأ

أسبقية الجزء على الكل، أو الانطلاق من الجزء وصولا إلى الكل، أو بمعنى آخر أسبقية القراءة الصغرى على القراءة الكبرى.

إن شاعرية الأعمال الأدبية حسب (ريشار) تكمن في المعاني والمدلولات، لا في التقنيات، فـ«لا تكاد تختلف دراسة جان بيير ريشار للأعمال الروائية عن دراسته للشعر، فهو دائما يبحث عن التيمات المتحكمة في شاعرية الإبداع الروائي والكامنة في الدلالات لا في التقنيات»[21]. فالأساس الأول للنقد الموضوعاتي هو "المدلول".

انتقل النقد الموضوعاتي إلى ميدان النقد العربي الذي خصه بالشرح والتنقيب والإضافة أيضا، وأول ما لوحظ هو تعدد المصطلحات العربية التي اقتضتها ترجمة المصطلح "Thématique" أو تعريبه، وأبرزها (الموضوعاتي، الموضوعي، الجذري، الثيمي، التيمي، التيماتيكي، الظاهراتي...)، والشائع منها هو "الموضوعاتي" الذي تم اختياره في صفحات الدراسة بغية الإسهام في توحيد المصطلح.

استعمل (سعيد علوش) مصطلح "الموضوعاتية" في كتابه "النقد الموضوعاتي"، لكنه استخدم مصطلحا آخر هو "التيمية" في معجمه النقدي، ودل بهما على الميدان النقدي ذاته، والذي قال عنه: «نمط متأصل في النقد، ويعمل على تقسيم العمل، إلى وحدات كبرى دالة»[22]. استعمل (حميد لحمداني) هو الآخر "الموضوعاتية" في كتابيه: "سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر"، و"النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي".

وشاطرهما (يوسف وغليسي) فاستعمل "الموضوعاتية" في كتبه النقدية الثلاثة: "التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، كلام المنهج.. فعل الكلام"، و"مناهج النقد الأدبي" و"النقد الجزائري المعاصر من ''اللانسونية'' إلى ''الألسنية''".

فيما ارتأى (محمد عزام) ترجمة المصطلح إلى "الموضوعاتي" و"الجذري" و"الثيمي"، رافضا في ذلك مصطلحي "المواضيعي" و"الموضوعي"، لأن المواضيعية باختصار: «نسبة غير موفقة إلى (الموضوع)»[23]، أما الموضوعية فهي: «تدل على الموضوع الفكري أو التأملي. وهي عكس (الذاتية). وقد اعتمدتها الدراسات النقدية التقليدية في بيان أفكرها الرئيسية، ثم أصبح منهجا نقديا مستقلا في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين في بريطانيا وأمريكا ومن أشهر رواده: ا. ا. رتشاردز، وت. س. إليوت، وكلينت بروكس»[24]. فتجنب الموضوعية لأنها تدل على النقد الموضوعي الذي يعتمد في تجسيد تصوراته النظرية والتطبيقية على "الموضوعية" بمفهومها الواسع؛ من حيث نزوعها إلى الحكم على الشيء كما هو دون انحياز أو تعصب أو فكر مسبق، وتطبيق القواعد وتقديم الحجج، فيخالف بذلك "الذاتية" بما تحمله من قيم متعددة؛ منها إخضاع الحكم لمقياس العاطفة والميول والانفعال. وهذا ليس مجال النقد الموضوعاتي، وإنما هو مجال النقد الموضوعي؛ ومن ذلك الكتاب الذي ألفه (محمد عزام)، عنوانه "المنهج الموضوعي في النقد الأدبي"، وكتاب (سمير سرحان)، عنوانه: النقد الموضوعي.

وإذا كان مفهوم "الموضوعية" مرفوضا لدى (محمد عزام) بسبب دلالته على تيار نقدي آخر، فإن (عبد الكريم حسن) استعمله بإلحاح.

ارتأى (عبد الكريم حسن) تسمية التوجه النقدي بـ"الموضوعي" بدلا من الموضوعاتي، وعلل ذلك بوسع مدلول الموضوعية واشتمالها على المعنيين؛ الأول المناقض للذاتية، والثاني الدال على موضوع تفكير أو تأمل أو نظر، فـ(موضوع Objet) يحمل معنى (Thème) ومعنى (Sujet)، بينما (Thème) لا تستطيع أن تتقابل مع (Sujet)، وبالتالي كان تمييزه من منطلق لغوي، وأن "الموضوعي" يحمل تكثيفا واقتصادا في اللغة بغض النظر عما تثيره الكلمة من التباس أي عقبة[25]، وبالتالي استخدم مصطلح (موضوع/ Objet) لا (موضوع/ Thème).

وفي هذه الإطار من البحث، نساير الدراسات التي رجحت المفهوم (موضوع/ Thème)، لما له من شيوع، ودقة في الدلالة.

يهدف النقد الموضوعاتي على حد تعبير (جميل حمداوي) إلى «استقراء التيمات الأساسية الواعية واللاواعية للنصوص الإبداعية المتميزة، وتحديد محاورها الدلالية المتكررة والمتواترة، واستخلاص بنياتها العنوانية المدارية تفكيكا وتشريحا وتحليلا عبر عمليات التجميع المعجمي والإحصاء الدلالي لكل القيم والسمات المعنوية المهيمنة التي تتحكم في البنى المضمونية للنصوص الإبداعية»[26]. وهو ما يؤكد اعتناء الموضوعاتية بالتيمات/ المواضيع على اختلاف نوعيها؛ سواء الموضوعات التي تدور في حقل الوعي، أو التي تدور في حقل اللاوعي، ولكن يبقى تحليلها ودراستها منوطا بوعي ذات معينة، قارئة وتسعى لفهم الحقائق.

وتنسب أبرز المجهودات العربية في النقد الموضوعاتي إلى (عبد الكريم حسن)، وذلك حسب شهادات العديد من الدارسين، من بينهم (يوسف وغليسي) الذي قال: «لعل أول محاولة عربية تصدع بانتمائها إلى أبجديات القراءة الموضوعاتية، ويقر لها عامة نقاد النقد بذلك، أن تكون محاولة

الناقد السوري الكبير الدكتور عبد الكريم حسن، الموسومة بـ(الموضوعية البنيوية- دراسة في شعر السياب)، الصادرة سنة 1983، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه ناقشها في جامعة السربون يوم 1980/10/14، بإشراف المستشرق الفرنسي الكبير أندريه ميكال»[27]. ولـ(عبد الكريم حسن) كتاب آخر في نفس الاتجاه النقدي، عنوانه "المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق"، تناول فيه مصادر النقد الموضوعاتي، ومفاهيمه الأساسية، وترجم دراسة تطبيقية له، ثم ختم بنقد له. وقد ركز على أعمال (ريشار) في هذا المجال من النقد، لكنه أقر في الآن ذاته بإسهاماته هو أيضا: «وهكذا فإن تقديمنا للمنهج الموضوعي لا يعد مجرد نقل من لغة إلى أخرى، وإنما إعادة خلق. فناقدنا "ريشار" لم يقدم منهجه في يوم من الأيام على النحو الذي قدمناه»[28].

ومما تميزت به دراسة (عبد الكريم حسن) أنها دراسة مفهومية تتتبع المسار التاريخي للمفاهيم، وفق إطار لا يعزلها عن ماضيها التراثي العربي، أما هدفه من ذلك فيبينه قوله: «قد يقول قائل: ولكن هذه المفاهيم حديثة. فأقول: إنني أهدف إلى إسقاط الحديث على القديم، ولا أتكلف إرجاع كل حديث إلى القديم»[29]، ورأى أن ذلك يجنب الدارسين التعمق في الثقافة الغربية وخدمتها دون خدمة ثقافة أمتهم، ويجنبهم أيضا الاكتفاء بإعادة صياغة التراث العربي.

ومما سبق، يتبين أن النقد الموضوعاتي فرنسي النشأة، لقي الاهتمام الكبير من الدارسين العرب، وأسهموا جميعا في تحديد ميدانه، وأقروا بأنه يترصد التيمات مهما اختلفت حقولها، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، والتمعن في فروعها للكشف عما تحمله من قضايا ومضامين، وهو ما يستدعي منا ضبط مفهوم التيمة/ الموضوع.

ثانيا: مفهوم الموضوع/ التيمة:

يعنى النقد الموضوعاتي بدراسة الموضوع/ التيمة (Thème) الماثلة في النص الأدبي، ونتيجة ذلك احتل مفهوم "الموضوع" مكانة هامة في حقل الموضوعاتية، فكان لبنتها الرئيسة في تشكلها، حتى أنه حظي باهتمام العديد من الباحثين، سواء الغرب منهم أو العرب، وصدق (عبد الكريم حسن) حين قال: «الموضوع هو المبدأ الذي تلتقي عنده كافة المفاهيم التي تؤسس المنهج الموضوعي»[30].

عرّف (دومينيك مانغونو) Dominique Maingueneau الموضوع من خلال فكرة التدرج الموضوعاتي في النص: «الجملة ليست بنية تركيبية فحسب، بل تساهم في تدرج النص، إنها توزع المعلومات المعروفة والمعلومات الجديدة بتعزيز الثانية على الأولى، إن المعلومة الجديدة، عند طرحها، تصبح معروفة ويمكنها أن تعتمد كنقطة ارتكاز جديدة، في صلب الجملة، يجري التمييز بين الموضوع، أي ما يتحدث عنه، أي العنصر المعروف، والمحمول الذي يمثل المعلومة»[31]، ومن ذلك يتضح أن "الموضوع" هو العنصر المعروف في النص، وسواه يمثل "المحمول"، ثم ينتقل أحد مكونات المحمول إلى مستوى الموضوع بمظهره الجديد في النص، شرط أن يزود بمكونات له تجعل من هذا الجديد معروفا لدى القارئ، فلا يتحقق الموضوع في النص إلا بمعرفته.

ثم أشار (دومينيك مانغونو) إلى تشكل الموضوع من ناحية أخرى تتعلق بدلالته: «يطابق الموضوع ما يعبر عنه حدسا بـ (عم نتحدث؟)، وأيا كان طول النص، فإن النص الذي يفترض أنه منسجم يجب أن يبني تصورا ما وأن يكون قابلا للتلخيص، هناك من الدارسين من يتحدث في هذا المضمار عن البنية الدلالية الكبرى للدلالة على موضوع النص منظورا إليه من حيث كيانه الكلي، ولما كانت كل مجموعة من الجمل المكونة لوحدة دلالية ما مرتبطة بموضوع، فإن النص يحتوي

موضوعات على مستويات عديدة، علما بأن المستوى الأخير يفترض أن يتضمن جميع المستويات الأخرى، وهذا جزء من ملكة/ كفاءة الأفراد الناطقين والتي تتجلى في قدرتهم على تأليف وتركيب عدد لا يحصى ولا يعد من المعلومات في بنية دلالية واحدة»[32]. فالموضوع مرتبط بمضمون الفكرة التي يشير إليها النص من خلال معلومات تبدو مساعدة في تجسيده، وكأنها بمثابة موضوعات صغرى أو وحدات جزئية للموضوع؛ وهذا ما يحدد الموضوع في الفكرة العامة للنص، والتي تحمل بدورها أفكارا جزئية؛ ويحدد الموضوع أيضا في البنية الدلالية الكبرى التي يجسدها النص.

ويحمل مفهوم "الموضوع" دلالة المعنى، إذ «يميز ريشار بين نوعين من المعنى: (المعنى الظاهري) و(المعنى الخفي). ومهمة النقد هي الكشف عن المعنى الخفي في النص الأدبي. ذلك أن المعنى موجود. وعلى الناقد إيقاظه من سباته العميق»[33]، لاسيما النص الأدبي المعاصر وما يكتنفه من غموض وترميز وإيحاء، فيتجسد فيه المعنى الخفي أكثر من المعنى الظاهري. و(ريشار) «في نقده (الموضوعاتي) لا يبحث عن المعنى لذاته، بل لما يكمن وراءه. إنه يبحث عن أصل المعنى، ومصدره، وغايته، وهدفه»[34].

والموضوع يفرض نفسه من خلال وجوده الصريح والبارز في النص، إذ «ينتهي ريشار إلى أن قيمة أي موضوع إنما تتحدد من خلال إلحاحه وقدرته على التمفصل، وإن معنى أي موضوع إنما ينتج عن علاقته بالآخر. ضمن (الكون التخييلي). وإن (الموضوعات) تميل إلى الانتظام في (مجموعات) مرنة عندما يهيمن عليها قانون (التشاكل)، و(البحث عن أفضل توازن ممكن)»[35]، وهذه المجموعات تأتي في شكل حقول تضم مفردات خاصة بموضوع معين.

وهناك مفهوم مرتبط بالموضوع، هو "المركبات الموضوعاتية"، ويعني دراسة الموضوع في علاقته بالموضوعات الأخرى، إذ لا يمكن عزله وإقصاؤه، ومن هنا جاءت فكرة الشبكة أو فكرة سلاسل الموتيفات لدى بعض الدارسين في حقل الأدب المقارن ممن يبحثون في علم الموضوعات. وللعثور على الموضوع نفسه في آثار متعددة، يتحتم على الدارس ألا يخرجه من المركبات التي أخذ منها، وألا يبسطه، فلا يقلص المعنى ولا يحرفه، بل يعتمد شرحا مقارنا شاملا[36].

ومن الأمثلة التي قدمت بخصوص عدم عزل الموضوع عن الموضوعات الأخرى "موضوع الحب": «لا يخطر على البال أن يعالج موضوع الحب في مسرح "كورناي" دون دراسة علاقاته المختلفة مع موضوع الشرف»[37]، وهذا التداخل بين الموضوعات هو الذي يحقق دراسة شاملة غير مقتضبة أو مخلة ببعض الموضوعات.

أما تلقي المصطلح "Théme" لدى النقاد العرب، فقد شهد عديدا من الترجمات إلى اللغة العربية «بما لا يقل عن 15 مقابلا: (تيم، ثيمة، تيمة، موضوع، موضوعة، غرض، مضمون، معنى رئيسي، جذر، محور، ساق، ترجمة، قضية، فكرة، خيط...)»[38]، ومن بينها يكاد يكون الإجماع على الاثنين: "التيمة" و"الموضوع"، من خلال كثرة استعمالاتهما.

تعني كلمة "الموضوع" في المعجم الوسيط: «المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه. و- من الأحاديث: المختلَق. و- (في الفلسفة): المدْرَك، ويقابل الذات. و- المقول عنه (في المنطق)، ويقابل المحمول»[39]، أي ما يدور حوله الكلام، وما يختلق من أحاديث، لكنه يأخذ معان أخرى تتباين حسب المجال الذي يرد فيه، منها الفلسفي فتأخذ الكلمة المعنى المضاد للذات وفق ثنائية (موضوعي، ذاتي)، وما يهمنا أكثر هو المفهوم الاصطلاحي في ميدان النقد الأدبي.

وعرف (جبور عبد النور) الموضوع بأنه: «مضمون ما يجول في خاطرنا وليس هو ذاتنا. وفي هذا المعنى يدل الموضوع على إحساس، أو عاطفة، أو صورة، وليس بالضرورة على شيء موجود في العالم. ماله وجود في ذاته، مستقل عن الفكرة التي تكون في ذهننا عنه. موضوع الكلام: المادة التي يجري عليها البحث شفويا أو خطيا، ومن ذلك قولنا: موضوع الرواية، موضوع النقاش، موضوع المحاضرة الخ...»[40]. يكون الموضوع مضمونا عاطفيا ينبع من عواطف الذات وأحاسيسها، أو فكرة تنبع من عقل الذات وأنماط تفكيرها ومواقفها المختلفة تجاه قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية...؛ وفي الحالتين يتجلى الموضوع في طابع معنوي. وفي المقابل من ذلك، يأتي الموضوع في صورة أخرى مادية وجودها فعلي في الواقع؛ وبهذا القول تكون الشجرة موضوعا، وكذلك عناصر الطبيعة وما صنعته يد الإنسان.

وقد عرف (سمير حجازي) الموضوع بأنه: «ما يدور حوله الأثر الأدبي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو هي الفكرة الجوهرية التي أراد المبدع التعبير عنها. وهو عنصر أساسي في الدراسة السوسيولوجية أو النفسية، ولا يعتد به في الدراسة البنيوية الشكلية»[41]، فربط الموضوع بتجربة المبدع التي تروم معالجة فكرة رئيسة أو قضية أساسية. وقد اتسم الموضوع بالتكرار لأنه فكرة جوهرية في العمل الأدبي، فـ«يلاحظ أن التكرار سمة بارزة بالموضوع، ولازمة له، لا ينهض إلا عليها في مجمل تعريفاته»[42]. ولعل لب الكلام يكون أكثر فعالية من التكرار عند تحديد الموضوع المهيمن.

وأشار (عبد الكريم حسن) إلى فكرة تنبانها العديد من الدارسين في تحليلاتهم، وهي "العائلة اللغوية"، حيث يتحدد الموضوع بأنه مجموعة المفردات التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة. وتتحدد العائلة اللغوية استنادا إلى ثلاثة مبادئ: الاشتقاق، الترادف، القرابة المعنوية، ولذلك تجمع في داخلها المفردات ذات الجذر اللغوي الواحد، والمترادفات، والمفردات التي ترتبط مع بعضها بصلة

معنوية أضعف من صلة الترادف[43]. فمفردات الموضوع تشكل فيما بينها عائلة لغوية، كما أنها تعد أجزاء الموضوع، إذ أنها تتكامل فيما بينها، ثم تلتحم مشكلة إياه.

كما فرق (محمد عزام) بين "الموضوعاتية" و"الموضوع" و"الجذر": «وأما (الموضوعاتية) فهي (الثيمية)، وتدل على (الموضوعات) الكامنة في الأثر الأدبي. و(الثيمة) THEME هي الجذر لهذه الموضوعات. وهذا الجذر يتصف بصفات محددة هي: القرابة السرية في العلاقات الخفية التي تنسجها عناصر (الموضوع)، والثبات الذي يعني أن الموضوع هو النقطة التي يتشكل حولها العالم الأدبي، والدينامية الداخلية في العلاقات الجدلية بين عناصر الموضوع وغيره من الموضوعات، في النص الأدبي»[44]. فالموضوعاتية تعني مجموع الموضوعات الواردة في العمل الأدبي، وهذه الموضوعات ذات جذر لغوي يوحد بينها من خلال علاقات وضحها (سعيد علوش) في قوله السابق؛ وتتمثل في الاشتقاق والترادف والقرابة المعنوية، والجديد في القول هو إعطاء التيمة معنى آخر لا يتطابق تماما مع الموضوع، لتكون بمعنى الجذر للموضوع. والبارز أنه جعل التيمة بمعنى الجذر، غير أننا نتبع الآراء القائلة بأن التيمة بمعنى الموضوع.

وفصل (يوسف وغليسي) بين مفهومي "الموضوع" و"الجذر" من أجل إجراء تطبيقي خاص بدراسته التي تقارب الموضوع الإفريقي في شعر محمد الفيتوري؛ فالموضوع حسبه: «يتمظهر على السطح المعجمي للنص، وهو يقتضي دراسة بنيوية محايثة (Immanente) لا يتعدى مجالها الحيوي ظاهر النص»[45]، أما الجذر: «فهو رحم الموضوع ونواته السيكولوجية التي يرتد إليها، فهو –إذن– موغل الامتداد في باطن المؤلف، لذلك لا مناص من دراسته دراسة سياقية (Contextuelle) وفقا لأبجديات التحليل النفسي»[46]، ويبدو اهتمامه كبيرا بالجذر، ويضفي عليه نفسية الأديب: «الجذر –في تقديرنا– هو البيئة الداخلية التي ينشأ الموضوع فيها، هو البنية التحتية للموضوع.. نواته الأولى،

هو الامتداد القصي للموضوع الموغل في أعماق نفسية بهيمة، هو القانون السيكولوجي الذي يحكم الظاهرة الموضوعاتية، وهو –أخيرا– النص في ارتباطه بالجهاز النفسي لصاحبه»[47]، وبنى تصوره انطلاقا من المرجعيتين البنيوية والنفسانية للنقد الموضوعاتي، فبحث في نفسية الشاعر ومرضه النفسي، ثم جذور هذا المرض، كون الموضوع الذي انشغل به الشاعر الفيتوري، وسلط عليه وغليسي ضوء الدراسة، هو بمثابة هوس.

وتختلف أنماط التيمات من عمل إبداعي إلى آخر؛ فهناك تيمة "الدين" وتيمة "الحب" وتيمة "الوطن" وتيمة "الحرية" وتيمة "المرأة" وتيمة "الجوع"... ويلاحظ أن التيمات يمكن حصرها في مجال محدد، فتكون مثلا اجتماعية أو تاريخية أو سياسية...

وغالبا ما ترد التيمة في النص الشعري لفظا صريحا يمثل بؤرة النص وجوهر مضمونه، كما أنها تتكرر بشكل لافت للنظر، مما جعل العديد من الدارسين يعتمدون على إحصاء عدد مرات وجود مختلف التيمات، من أجل تبيين الرئيسة منها، و(يوسف وغليسي) حين طبق على الدواوين الشعرية، استعان كما صرح: «بمفهوم (الكلمة/ الموضوع) الشائع في الدراسات الأسلوبية والموضوعاتية المعاصرة»[48]. بينما النص الروائي قد تكون تيماته ذات بعد هيولي متناثر على الصفحات، لا يمكن الإمساك به في مفردة صريحة، فأحيانا تكون (الكلمة/ الموضوع) غائبة رغم أن النص يدور حولها، ما يلزم الباحث بصياغة الكلمة الدالة على الموضوع.

إذن؛ يقارب النقد الموضوعاتي النصوص الأدبية من زاوية المضمون، فيعالج التيمات، وهي نفسها الموضوعات على اختلاف أصولها، وما تحمله من تفرعات داخلية، تتجلى في مفردات متضامنة فيما بينها داخل عائلة لغوية واحدة، وقد تكون التيمة إيديولوجيا ماثلة في أعمال روائي

ما، تتحلى بطابع اجتماعي، أو سياسي، وإن كانت مسيطرة على فكر الكاتب، فقد ترافقها مجموعة من التيمات الأخرى.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج أن:

– يتتبع النقد الموضوعاتي "المدلولات" التي يحملها النص، سواء كان ذلك على مستوى الألفاظ، أو على مستوى الجمل.

– ينشغل النقد الموضوعاتي بالبحث عن الأفكار المتسلطة على الكاتب، وتحديد موضوع الكاتب الذي يستحوذ على كامل اهتمامه؛ وبعبارة أخرى، ينشغل بدراسة "الموضوع المهيمن".

– من أبرز مبادئ النقد الموضوعاتي: "أسبقية الجزء على الكل"، أو الانطلاق من الجزء وصولا إلى الكل، أو بمعنى آخر أسبقية القراءة الصغرى على القراءة الكبرى.

– الأساس الأول للنقد الموضوعاتي هو دراسة "المدلول".

– يعنى النقد الموضوعاتي بدراسة "الموضوع/ التيمة" الماثل في النص الأدبي.

– ليس "الموضوع" عنصرا جديدا في النص، بل هو عنصر معروف؛ حيث يفرض نفسه من خلال وجوده الصريح والبارز في النص.

– يرتبط "الموضوع" بمفهوم "المركبات الموضوعاتية"، مما يعني أن دراسة الموضوع تكون في علاقته بالموضوعات الأخرى.

– الموضوع هو الفكرة الجوهرية في العمل الأدبي، أو العنصر الأساسي المشكل للمعنى؛ ولذلك اختص بالتكرار.

– نظرا لخاصية التكرار اعتد الدارسون كثيرا بالإحصاء في دراساتهم الموضوعاتية.

- ولكن؛ قد يغيّب العمل الأدبي الموضوعَ بلفظه الصريح، مما يجعل التكرار خاصية غير واردة.
- للموضوع "مفردات" تشكل فيما بينها عائلة لغوية.
- ما يوحد مفردات الموضوع، هي ثلاثة أمور: الاشتقاق، والترادف، والقرابة المعنوية.
- للموضوع "جذر"، ويمثل هذا الجذر النواة السيكولوجية للموضوع، إذ أنه يرتبط بنفسية الأديب.

الهوامش والإحالات:

[1] – ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من ''اللانسونية'' إلى ''الألسنية''، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، د.ط، 2002، ص: 169.

[2] – ينظر: يوسف وغليسي: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، كلام المنهج.. فعل الكلام، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، د.ط، د.تاريخ، ص: 7، 8.

[3] – ينظر: ميجان رويلي وَسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط3، 2002، ص: 321.

[4] – يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من ''اللانسونية'' إلى ''الألسنية''، ص: 169.

[5] – انطوان خوري: مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط1، 1984، ص: 72.

[6] – المرجع نفسه، ص: 74.

[7] – مجموعة من المؤلفين: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ت: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص: 97.

[8] – المرجع نفسه، ص: 96.

[9] – غاستون باشلار: جماليات المكان، ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط2، 1984، ص: 17.

[10] – غادة الإمام: جاستون باشلار، جماليات الصورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط1، 2010، ص: 157.

[11] – المرجع نفسه، ص: 164.

[12] – غاستون باشلار: جماليات المكان، ص: 23.

[13] – محمد عزام: وجوه الماس، البنيات الجذرية في أدب علي عقلة عرسان –دراسة–، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 1998، ص: 16.

[14] – غاستون باشلار: جماليات المكان، ص: 10.

[15] – غادة الإمام: جاستون باشلار، جماليات الصورة، ص: 155.

[16] – المرجع نفسه، ص: 156.

[17] – المرجع نفسه، ص: 221.

[18] – عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط3، 2006، ص: 10.

[19] – محمد عزام: وجوه الماس، ص: 19.

[20] – ينظر: محمد عزام: وجوه الماس، ص: 20.

[21] – حميد لحمداني: سحر الموضوع (عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر)، منشورات دراسات سيميائية أدبية ولسانية (دراسات سال)، المغرب، ط2، 2014، ص: 43.

[22] – سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت؛ سوشبريس، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص: 56.

[23] – محمد عزام: وجوه الماس، ص: 13.

[24] – المرجع نفسه، ص: 13.

[25] – ينظر: عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، ص: 45، 46.

[26] – جميل حمداوي: المقاربة النقدية الموضوعاتية، صحيفة المثقف، العدد 3175، 16-05-2015، تاريخ الزيارة: 2016/05/30، مؤسسة المثقف العربي؛ http://www.almothaqaf.com

[27] – يوسف وغليسي: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، ص: 11.

[28] – عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، ص: 12.

[29] – المرجع نفسه، ص: 14.

[30] – عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، ص: 45.

[31] – دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ت: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2008، ص: 130.

[32] – دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص: 130– 131.

[33] – محمد عزام: وجوه الماس، ص: 23.

[34] – محمد عزام: وجوه الماس، ص: 23.

[35] – المرجع نفسه، ص: 24.

[36] – بير برونيل وَأ.م. روسو وَكلود بيشوا: ما الأدب المقارن؟، ت: عبد المجيد حنون وَنسيمة م. عيلان وَعمار رجال، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار– عنابة، د.ط، 2005، ص: 205.

[37] – بير برونيل وَأ.م. روسو وَكلود بيشوا: ما الأدب المقارن؟، ص: 206.

[38] – يوسف وغليسي: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، ص: 25.

[39] – مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص: 1040.

[40] – جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط2، 1984، ص: 272.

[41] – سمير سعيد حجازي: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2001، ص: 138.

[42] – يوسف وغليسي: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، ص: 19.

[43] – http://www.saidallouch.net

[44] – محمد عزام: وجوه الماس، ص: 13-14.

[45] – يوسف وغليسي: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، ص: 48.

[46] – المرجع نفسه، ص: 48.

[47] – المرجع نفسه، ص: 83.

[48] – المرجع نفسه، ص: 51.

قائمة المصادر المراجع:

1- الإمام غادة: جاستون باشلار، جماليات الصورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط1، 2010.

2- باشلار غاستون: جماليات المكان، ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط2، 1984.

3- برونيل بير وآخران: ما الأدب المقارن؟، ت: عبد المجيد حنون وَنسيمة م. عيلان وَعمار رجال، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار– عنابة، د.ط، 2005.

4- حجازي سمير سعيد: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2001.

5- حسن عبد الكريم: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط3، 2006.

6- حمداوي جميل: المقاربة النقدية الموضوعاتية، صحيفة المثقف، العدد 3175، 16-05-2015، تاريخ الزيارة: 2016/05/30، مؤسسة المثقف العربي؛ http://www.almothaqaf.com

7- خوري انطوان: مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1984.

8- رويلي ميجان والبازعي سعد: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط3، 2002.

9- عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط2، 1984.

10-عزام محمد: وجوه الماس، البنيات الجذرية في أدب علي عقلة عرسان –دراسة-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 1998.

11-علوش سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت؛ سوشبريس، الدار البيضاء، ط1، 1985.

12-لحمداني حميد: سحر الموضوع (عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر)، منشورات دراسات سيميائية أدبية ولسانية (دراسات سال)، المغرب، ط2، 2014.

13-مانغونو دومينيك: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ت: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2008.

14-مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.

15-مجموعة من المؤلفين: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ت: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، 1990.

16-وغليسي يوسف: التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، كلام المنهج.. فعل الكلام، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، د.ط، د.تاريخ.

وغليسي يوسف: النقد الجزائري المعاصر من ''اللانسونية'' إلى ''الألسنية''، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، د.ط، 2002.